

## سليمان البستاني

الرجل - رجل السياسة - رجل العلم والادب

بقلم فؤاد افرام البستاني

## توطئة

﴿العائلة﴾ في جبة بشراي من لبنان الشمالي قرية صغيرة تُدعى بقرقاشا. وفي هذه القرية صخرة كبيرة تُعرف حتى الآن بصخرة البستاني او بصخرة ابي محفوظ البستاني. ذاك اسم لم تقوَ الستون على نزعها. وان من الاسماء الماثورة التقليدية ما ثبتت نبات الصخور

أيام كان خير عمل الدنيين المرثة والريف مررد زراعة الارض. أيام كانت التجارة مرادفة في عرفهم مدوب والاس. أيام كان اسم اميركالا يُفحق في مخيلة الجليليين تلك الاكداس الذهبية. أيام كان اعظم سفرة يحلم بها اللباني هي ان يرحل الى طرابلس او الى بيروت او الى الشام فيرجع محدثاً اهله بالمجائب والقرائب فيتناقلونهم ويعطيون الحظ الذي اتاح له تلك الاسفار البعيدة فيعطه اهل الضيعة ويضبطون امراته واولاده وتتغنى نساؤهم:

زوجك بالمليحة راح عالشام وحده

في تلك الايام كان ابو محفوظ يحرق بستاناً عامراً وسط بقرقاشا. كان يتعب ويسكد فلا يترك شجرة غريبة او زهرة عجيبة او نبتة صالحة الأودعها ذاك البستان الحبيب واجتهد في اتمامها... حتى فانت مزروعاته وفاكهته منظرًا وطعمًا كل مزروعات الضيعة. ووصل صيت بستانه الى طرابلس شمالاً والبترون غرباً. وضحى حديث الشيخ في لياليهم وقبلة الشبان في ترهاتهم. ولقب ابو محفوظ «البستاني» على سبيل الاطلاق فلم يمد يُعرف إلا بهذا اللقب. وكان جنب البستان صخرة كبيرة يجلس عليها صاحبه اذا انتهى من عمله واراد الراحة فلقبوها ايضاً بصخرة البستاني



أمواتي ملكتم كرمًا      يميلكم نسي وحادي  
فخذوا إذا رم الحب فذا      ابلى لكم من حسي الثاني (سليمان البستاني)



فاضت الصخرة شاهدةً حتى اليوم على منبت هذه العائلة الكبيرة  
وكان أن قرئت شوكة المناولة في تلك الجهات واخذوا باستعباد المسيحيين .  
فأبت أنفة ابي محفوظ الإقامة على الضيم وفضل الهجرة فترك قريته وداره وبتانته  
العزيز سنة ١٥٦٠ وتقدم مع ولده محفوظ واخوته الثلاثة قاصدين الى دير القمر وهي  
اذ ذاك كبرى مدن الجبل راهم وسط للصناعة

وفي الطريق تحلّف عنهم احد اخوة ابي محفوظ فاقام في قرية غادير من اعمال  
كسروان وامتد نسله فيها بعد الى صربا وجونيه وساحل بيروت . وكان على الاب ان  
يفارق ابنه محفوظاً ايضاً فانه لعداوة دموية على ما يقال (١) ترك والده وعميه ورحل  
الى ظهر صفرا في بلاد عكار ولا يزال نسله هناك يُعرف الى الآن بيت محفوظ  
أمّا ابي محفوظ واخوه فرصلوا دير القمر واشتروا قطعة ارض من الدروز وابتدأوا  
بجربها مجددين مهنتهم . وتكاثر نسلهم حتى ضاق بهم مجال العمل ، فهبط بعضهم  
بميسالم في اوائل القرن الثامن عشر الى مزرعة الدلهية من اقليم الحروب . وفي  
حديث طويل لا يسح المقام بسرده انتقلوا الى مزرعة الدبيّة التي اخذوها من بيت  
ابي نكد فتكاثروا فيها وعثروها ، ولم يدخلها في اول الامر احد غيرهم ، حتى  
صارت اليوم قرية كبيرة اكثر سكانها من آل البستاني

وينا ايضاً نسل من ظلوا في دير القمر وانتشروا مع ابناء عمهم حتى ضاق عليهم  
المقام فاخذوا بالهجرة . واحفادهم منتشرون اليوم في اكثر مدن وقرى لبنان وسوريا .  
وقد قطعوا البحار فترى منهم في مصر والسودان واروپا على اختلاف ممالكها  
والولايات المتحدة والارجنتين ، والبرازيل والمكسيك وسائر اقطار اميركا

وكان لاسمهم الادبي والعلمي ان ينتشر انتشار افرادهم واكثر . فنبغ منهم  
كثيرون من رجال الدين والدنيا فخدم منهم الكنيسة المقدسة ثلاثة مطارين : عبده  
وبطرس واوغطين . ونحو الخمسين كاهناً من اشهرهم الحارثية : يوسف ضاهر  
ويوسف جرجس وبطرس وبولس ورافائيل والاب منصور اليسوعي . أمّا خدمة العلم  
والادب فمديدون نكفي بذكر العلامة الشهيد المعلم بطرس ابي النهضة واولاده :  
سام ونجيب ونسيب والشاعر الروائي سعد الله والكاتب الاخلاقي سعيد والشيع

عبدالله حامل لواء اللغة اليوم والاساتذة: امين وهـ، خاويل ووديع والصحافيين: يوسف ونعموم واسكندر وكرم وبطرس والشاعر الرقيق ادوار والكاتبة الادبية السيدة اليس وكان الله قد قيض لهذه العائلة ان ترتقي ذروة السياسة كما ارتقت ذروة العلم فنبغ منها فقيدها العزيز فقرن الى دقة العالم حزم الاداري، وكان عماد الدولتين: السيد والقلم ٠٠٠ فن هو هذا الرجل؟ وما هي مزايا رجل السياسة؟ وما هي صفات رجل العلم والادب؟ ثلاثة اقسام نتوخاها في درسنا هذا

## الفصل الاول

### الرجل

#### ١ في بكشتين: الطفل - والولد (١٨٥٦-١٨٦٣)

على رابية من رواني اقليم الحروب من قضاء الشوف في لبنان الجنوبي ارتفعت بناية كبيرة تظور لآلة ٠٠٠ بيروت - لريق الدامور بقرميد: الساطع تحت اشعة الشمس ٠٠٠ وحول ٠٠٠ البناية تريت عدة بيوت اذنت مزعة تُعرف ببكشتين في هذه البناية، او بالاحرى في الدار القديمة التي قامت عليها هذه البناية، رأى سليمان البستاني النور في الثاني والعشرين من شهر ايار سنة ١٨٥٦ يوماً مباركاً كان اليوم الذي رُزق فيه خطار سلوم البستاني بكر انجاله فقوت عينه ورائته التهانى من كل جهة. وكان فرح العائلة شاملاً اذ كان الوالدان بستانيين: الاب خطار بن سلوم شقيق المطران بطرس بن نادر، شقيق المطران عبدالله بن ابي يوسف ناصر ٠٠٠ ابن ابي محفوظ البستاني. والامم مريم بنت الحوري جرجس البستاني. وان الواقف على عادات بلادنا والعارف بما تحتفل به العائلات يوم ولادة الولد البكر يعلم مقدار احتفال عائلة خطار بولادة سليمان

ورُزق ابوه بعده ثلاثة انجال هم: سعيد بك، امير آلاي الجند اللبناني سابقاً والدكتور عبدالله بك الطبيب الشهير في مصر والاساتذ الدكتور سليم بك من اشهر المحامين في مصر ايضاً

وكان السعيد المذكور المطران عبدالله البستاني بعد ان اقام مكانه على ابرشية

صور وصيدا المارونية ابن شقيقه المطران بطرس يسكن مع عائلة خطار حفيد اخيه نادر. فسر سرورا شديدة بولادة سليمان. وما ان ترعرع حتى تطلت به ، وكثيراً ما نرى الشيخ يتلقون بالاطفال اذ يرون بهم تذكراً للماضي وتعزية على الحاضر ورجاء للمستقبل ، وهكذا كانت حالة المطران عبدالله مع سليمان فابلق السنة الثالثة حتى اخذ بثقلينه مبادئ العربية والسريانية . وكان يأخذه بعد انتهاء الدرس الى التزهة حول بكشتين فيروض جسمه وعقله في تلك الاحراج والبراري ويذكر في مخيلته صوراً جميلة ومناظر بديمة كان عليها ان تيم بسمة اللطف وحن الذوق والرشاقة كل ما سيخطه ذاك القلم . . . وان من يقرأ وصفه لسويسرا في قصيدته « الشفاء » يفاجئ بين -طورها تأثير تلك التربية الجليلة وفضلها على الشاعر فهي التي تعودته ملاحظة ادق التصاوير فيستخرج منها ارق البراطف

هكذا نشأ سليمان بين الدرس والتزهة فاتحاً صدره للهواء الطلق الصافي وعقله لبذور العلوم . وكان منذ طفولته ميلاً للمطالعة محباً لمعرفة كل ما يقع تحت بصره . وقد ساعدته ذاكرته القوية فنال وهو في السابعة من عمره ما لا يئاله غيره وهو ابن خمسة عشر . وكان نهماً في المعارف يسأل عن كل ما يسمع فاحصاً بدقة عن اصله وفضله . قرأ ذات يوم باشارة المطران فصلاً من كتاب « الف ليلة » يذكر حكاية صياد يجد غريتا فيروي له الغريرت قصة ملك مع حكيم شهير فانتهى الى مكان فيه : « وكان قد دخل مدينة الملك حكيم كبير طاعن في السن يقال له الحكيم رديان . . . وكان عارفاً بالكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية . . . وما وصل الى هنا حتى اطبق الكتاب وقال : « أو كان هذا الحكيم احسن مني ؟ ولم لا اعرف انا بالكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية ؟ » فتميم المطران جذلاً وقال : « ستعرف كل ذلك ان اجتهدت » . . . وظلت هذه الفكرة في دماغ سليمان حتى ادرك ذاك الحكيم وجاوزة . . .

هذا وللمطران فضل آخر اعظم شأناً ألا وهو انما روح التقوى والتدين في نفسه الصغير . فقد كان بارشاداته ونصائحه وامثاله الانجيلية يغرس الايمان في تلك الارض الخصبية غرساً لم تقو على زرعته جميع زخارف العالم وسفاسط اعداء الدين . وكان ما يرى سليمان في والديه من الفضائل يمزج تلك النواحي وينسبها . وكان ابوه خطار

مشهوراً بالبروة والكرم وعزة النفس حتى سار صيته في تلك الجهات. وكان الماز في طريق بكشتين لا يحسر إلا ان يأتي بيت خطار فيقيم عنده ضيفاً ما شاء. ذلك لان خطاراً المذكور كان يغضب اشد الغضب على من يمر في ليل او نهار ولا ينام او يأكل في داره. وسنرى انه كان على سليمان ان يرث القسط الوافر من هذه الصفات

٢ في بيروت: التلميذ - المعلم - الصحافي - الاديب (١٨٦٣-١٨٧٦)

ولما بلغ السابعة من عمره تكاملت عليه ظواهر النباهة فرأى ابوه ان يرسله الى المدرسة الوطنية في بيروت. وكان مؤسسها ورئيسها نسيب الشهير المعلم بطرس البستاني ابا النهضة الحديثة. فدخلها سليمان سنة ١٨٦٣ ومك بطل به المقام حتى نبغ في كل علومها وبرز على اقاربه. وكان من معلميه فيها الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير. فاتقن في المدرسة العربية والانكليزية ودرس الفرنسية والسرانية... وكان يقرب الى الاجتهاد حسن الصفات وطيب الاخلاق حتى احرز بين رفقاته افضل مقام واطيب سمعة. فكانوا يرون به الصديق الصدوق والكاشح الخالص يسير ن ابيه ما ينجح اذنتهم انية فيتقبل برارهم بوجهه بش ويودها قدام عرفوه عمية راساً ويعمل على التوفيق بين المختلفين وملاشاة كل فتنة تبدو دتي هي احسن. فظهرت فيه من ذلك الحين يرثومة الرجل السياسي المحك والاداري الزين. وكان ينصح رفاقه نصائح صالحة يتبعونها بكل دقة ارضاء؛ له اذ كانوا حرسين على مسرته متفانين في اعتباره

وبما اشتهر به في المدرسة قوة ذاكرة قرنها الى ذكاء حاد فتج عنها مقدرة غريبة على استيعاب العلوم والتوسع فيها بطريقة عقلية أمين معها ضرر تراكم المحفوظات المتشعبة الانواع... وقد ساعدته هذه الذاكرة على حفظ الكثير من المعارف الثانوية. وبما يدل على قوتها انه سرد مرة عن ظهر قلبه نشيداً ونصف نشيد من ملحمة «الفرديوس المفقود» للثن الشاعر الانكليزي، مع قسم وافر من قصيدة «سيدة البحار» لولتر سكوت الروائي الانكليزي واستظهر الفية ابن مالك وانشد مني بيت منها في احدى حفلات المدرسة الوطنية

واشتهر ايضاً في المدرسة بالثقافة فن التمثيل. فكان يُهدد اليه بتمثيل الادوار

الدقيقة في الروايات . ولا يزال بعض مترجميه يتناقلون انه مثل مرة درر «منتور» في رواية «تلياك» بهارة ينذر ان يأتي بمثلها من كان في سنه . وهذه الرواية لاحد معلمي المدرسة المذكورة الشاعر سعد الله البستاني (١)

وبعد ثماني سنوات من دخوله المدرسة نال شهادتها النهائية . فلم يكتبها بل تابع الاجتهاد يبذل الجهد في افاة تلامذته وحثهم على درس لغة البلاد واحوالها وعادات اهلها . كل ذلك بطريقة سهلة ساذجة جعلت له اعظم اعتبار في عيونهم وكان يحوّر في «الحنان» و«الحقة» (٢) وتولى تحرير «الجنيّة» (٣) واشتغل مع انسابه اصحاب هذه الصحف في تأليف «دائرة المعارف» وله فيها المقالات الشيقة والابحاث الدقيقة

وذكر عيسى اسكندر الملوّف انه انتدب ترجماناً لتوصية الولايات المتحدة (٤) وكان لا يألوا جهداً في سبيل نشر المعارف وتحييد النهضة الادبية في سوريا فعُدّ من مؤسسيها . ودخل في جمعية «زهرة الآداب» وترأسها مرتين . وكان لها في ايامه نفوذٌ يُذكر

وفي غضرن ذلك اشتدّ الالم في عينيه فاعتزل المطالعة والكتابة مكرهاً معوضاً ما امكنه بأحاديثه الشيقة وافاداته . ولحسن الحظ لم يقعه الالم طويلاً بل تابع جهاده بكل نشاط . . . منتناً زمن الشباب لا تصرفه في اللذات والملاهي ككثيرين بل ابذله في سبيل تحصيل العلوم وتهذيب النفس بأداب الشعوب المختلفة . وكان مع اشغاله وتمشقه في الدروس يجد ميلاً فطرياً الى اتقان اللغات العديدة فحصل منها قطاً وانراً كما ستري .

(١) حرجي نقولا باز : سليمان البستاني - بيروت - ١٩٢٥ ص : ٤

(٢) سحيدان الاول مجلة نصف شهرية سياسية علمية ادبية تاريخية . والثانية جريدة نصف اسبوعية سياسية تجارية ادبية ، انشأها اللام بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ وسلم ادارة الثانية الى ابنه سليم . وبعد وفاة الاثنين نال امتيازها نجيب البستاني فاصدرها الى سنة ١٨٨٦ ثم أُجبر على ايقافها لا حصل من الضغط على المطبوعات

(٣) جريدة سياسية تجارية كان يصدرها سليم البستاني اربع مرات في الاسبوع . عاشت من

سنة (١٨٧١) الى سنة ١٨٧٥

(٤) جريدة «الاستقلال» في ٦ آب سنة ١٩٢٥

٣ بدو أسفاره المراق . جزيرة العرب . قبائل البادية ( ١٨٧٦ - ١٨٨٥ )

«مجرة» بد مجرة بد أخرى وهووم في ائرم من هووم»

(خليل مطران)

ولم تنحصر شهرة البستاني في محيط لبنان وسوريا الضيق بل تجارزته الى الاقاليم المجاورة وهو لم يتجاوز العشرين من العمر . فارسل بهض وجهاء البصرة بزعامه قاسم باشا زهير يستقدمونه لانشاء مدرسة ونشر جريدة . وكان حب الاسفار يأخذ من نفسه شيئاً فشيئاً ، فلبى دعوتهم هذه ، وسافر سنة ١٨٧٦ مصحوباً على قول المقتطف باحد ابناؤه البستاني (١) . فانشأ هناك مدرسة ادارتها سنة وتركها لغيره منتصرفاً الى تجارة التمر مع آل زهير . وكان مع اعماله التجارية لا ينفك عن درس احوال تلك البلاد واخلاق اهله و عاداتهم ويدون كل ذلك في مفكراته مترقباً الفرص للسفر وتفتد الاعراب في البوادي المجاورة . وكان قد اتخذ بغداد مقراً له فدرس احوالها المالية والاقتصادية والزراعية واخلاق اهله وما جاررها من العربان . ولم يلبث ان تعين <sup>هـ</sup> راً في محستها التجارية

وكان في بغداد شركة للسراكب الحديدية العثمانية تعرف شركة «عمان» ساءت احوال ادارتها عند قيام مصلحتها مدحت باشا من تلك الارض فانحطت كثيراً واتهمت امراؤها وتكاثرت عليها الديون فوزحت حتى عين ثبوت باشا والياً على البصرة . فاستاء لذلك وارسل الى الاستاقفة تقريراً ضافياً بهذا الشأن . فاته التفويض التام بالاصلاح . فتداول مع مجلس ادارة الولاية وبعد البحث الطويل لم يجدوا الا سليمان يولونه هذا الامر . فتعين مديرآ لها وللمعمل حديد كان انشاءه مدحت باشا . وأطلقت يده في التصرف الداخلي والغرل والتعيين وجميع ما يتعلق بادارة تلك الشركة . ولم تثنى ثلاثة اشهر حتى ترتبت الاشغال وحسنت حال الشركة فوفت ديونها وجمعت الوف الليرات ارباحاً . فكان نصيب البستاني من ذلك السمعة الطيبة ، واقر له الجميع بحسن الادارة والحكمة في التنظيم والترتيب

وبعد ذلك عنت له الاسفار والرحلات العلمية فزار مرات بلاد العرب وقصد

(١) راجع المقتطف (شهر آب سنة ١٩٢٥) - سليمان البستاني ص : ٣٤١ - ٣٤٧

اليمن ونجد وحضرموت وغيرها . فدرس احوالها وطبائع اهلها وميولهم وطرق معيشتهم وعاداتهم في افراحهم واحزانهم . وسافر اياماً في البادية على ظهور الابل حتى وصل الى « الرقتين » فرآها « مطمئن من الارض في بادية فقرة تقتله اشعة الشمس اذا وقف اليها ساعة واحدة » ( ١ ) . ثم زار جميع الاماكن المشهورة في شمر العرب الاقدمين وتفقّد احوال القبائل الحالية فجالس شيوخها وحادث شعراؤها وجمع الكثير من اشعارهم في ديوان وعد بطبعه فلم تمكنه الظروف . ولعله يطبع مع كتابه الكبير في تاريخ العرب الى اليوم الذي باشربه حينذاك ولا يزال مخطوطاً وكان يبحث في تلك البوادي بحث عالم خبير مدقق فتوفى الى اكتشاف قبيلة عربية لم يعرفها احد قبله ولا دون اسمها فلم يكتب . فبحث في اصلها وكتب عنها مقالاً ضافياً في ثلاثة اجزاء من مقتطف سنة ١٨٨٢ وسنورد الى ذكرها . وقد احصى جميع بدو القبائل بسبعة ملايين احصاء دقيقاً لم يجاروه به احد . فابتدأ من بدو سوريا فالمرات فاطراف الاناضول فنجد والحجاز واليمن وعمان وحضرموت وغيرها

٤ من الاستانة واليهما : دائرة المعارف التركية - زواجه - معرض شيكاغو ( ١٨٨٥ - ١٨٩٨ )

« جيت للمغرب بعد القرن مرتين ما ابنت من غير آلا الى سفره » ( مراد ابي نادر )  
وبعد تسع سنوات عاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ وتابع شغفه في « دائرة المعارف » . وكان قد توفي نسيه سليم سنة ١٨٨٩ وقبل موته اراد ان يترجم الدائرة الى اللغة التركية فعهد بذلك الى خلفي افندي رئيس المكتب السلطاني ومعه نخبة من كتّاب الترك فترجموا منها نحو المجلدين وتوفي سليم المذكور قبل المباشرة بالطبع . فرأى سليمان وابناء عمه نجيب ونسيب ان يتشوا العمل . ولما كان لا بد من رخصة وزارة المعارف سافر المترجم الى الاستانة فأتصل بكامل باشا وكان يومئذ وزير الاوقاف وبمسيد باشا الصدر الاعظم وغيرهما من الوزراء كجودت وصبحي . وظلّ يتردّد على الوزارة ثلاثة اشهر وهي تاطلّه الى ان علم الصدر الاعظم بذلك باشارة كامل فقال له : « لو خطر لي انك لقيت هذه الماطلة لأغنتك من تلقا . نفسي عن هذا العناء فاذهب الآن مطمئناً وعد اليّ بعد ثلاثة ايام » . وفي اليوم التالي فاز بالاذن وصارت الرخصة

بيده فزار سعيد باشا في اليوم الثالث «ليشكره» لا ليشكره اليه» (١)  
 ورجع الى بيروت فاصدق الجزء التاسع من «دائرة المعارف» العربية واراد طبع  
 الدائرة التركية فحال دون ذلك اشتداد المراقبة والضغط على المطبوعات حتى انه  
 اضطر الى السفر الى مصر حاملاً معه مواد المؤلف المذكور. وكان ذلك في اواخر سنة  
 ١٨٨٧ فشر في القطف (٢) مقالته عن القبيلة المكتشفة واسمها «الصلبة» او «الصليب» (٣)  
 واذ كان يصلح مسودتها في ادارة المجلة المذكورة اقترح عليه رئيس التحرير ان يترجم  
 الاياداة فوعد وبدأ بالترجمة

وكان قد نشر طريقة للاختزال العربي في الجزء التاسع الذي اصدره من دائرة  
 المعارف بعنوان «ستينوغرافيا» فاراد الخديوي توفيق باشا ان يعمتها في مصر. فاعاد  
 المترجم نظره فيها ونشرها على حدة. ثم عرض له ما دعاه الى الوحييل وامل  
 المشروع. وكان عليه ان يتابع اسفاره العديدة وقد قال :

« ولم أكد استقرت في مصر حتى حدا بي حادي الانفار التي ألبتها منذ الصبا فبرحت القاهرة  
 سنة ١٨٨٠ وفي التنس شئت بما وحنين اليها. فاتتني في الطواف الى العراق سعدان طرنت  
 الهند والحراف النجم فأقت فيها زهاء سنتين. . . ثم شخست الى الاستانة وانعدتاً مقاساً طياً  
 لبنت في سبع سنوات كنت كثير التنقل في اثانها بين الشرق والغرب فيوم بدوربا وسنة ماوربا  
 واميركا والرجع الى الاستانة » (٤)

وتشلع في بلاد العجم من اللغة الفارسية، فتعرف الى مؤلفات مشاهيرها  
 كالتردوسي وغيره وطالع اشهر ملاحمها من امثال الشاهنامه. وكان من طبعه ميلاً  
 للشعر القصصي ميلاً كان من الاسباب التي دفته الى اجل واعظم عمل. اتاه شاعر  
 عربي ألا وهو تعريب الاياداة

وفي بغداد تزوج من ابنة انطون البغدادي الكلداني فلم يتفرق. معها ولا رزق  
 منها اولاداً. واقام في الزوراء سنتين تفرغ فيها الى متابعة التعريب وكتابة مؤلفه  
 في تاريخ العرب المذكور آنفاً. وبعد ذلك عاد الى الاستانة واقام بها كما قال سبع  
 سنوات انتدب في خلالها لتولي ادارة القسم العثماني من معرض شيكاغو. فقادر عاصمة

(١) جرجي نقولا باز - سليمان البستاني (ص: ٧) وتاريخ الصحافة العربية (٢: ١٦١)

(٢) راجع المنتطف (شهر آب ١٩٢٥) سليمان البستاني (٣٤١-٣٤٢)

(٣) اطلب مقالة عن الصليب في المشرق (١: ١٨٩٨) [١٨٩٨: ٦٧٣] (٤) مقدمة الاياداة (ص: ٧١)

آل عثمان الى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٣ وهو يرجوان بين اللاميركان شيئاً من بحسن الشرق ومقدرة ابناية على مماثلة ابناؤ الغرب بأفكارهم واعمالهم . فانشأ هناك جريدة تركية دءاها « شيكاغو سر كيسي » اي « معرض شيكاغو » . ولكنها لم تنل حظاً وافراً من الحياة بل اضطهدتها سفارة تركيا لانها لم تمدح الباب العالي . ولم يكن حظها المالي احسن من حظ جريدته الاذني فخر في ذاك المرض خسارة كبيرة قدرت بنحو ٢٥٠ الف ليرة

ثم رجع الى الاستانة وكان قد درس اثناء اقامته في العراق مشروع ربي تلك الاراضي الخصبة فكتب تقريراً رسمياً في ذلك روجه الى الوزارة العثمانية ، وكانت قد سدت اسماؤها الوشايات والمفاسد بجمته فلم ينل جواباً

وشهد في الاستانة سنة ١٨٩٦ منبجة الارمن من اولها الى آخرها . وكان ساكناً اذ ذاك في «فتار باغچه» مجاوراً «اللدالي فزاد» منفي الشام . وكان الرجل من عقلاء الاتراك يكرهه سنك الدم البري . فراه المترجم «يطوف مدججاً ببلاحه ينهي عن سفك الدماء . ينجي الليل بين هاتيك الاحياء واعظاً منذراً متلفظاً متهدداً على ما تقتضيه الحال . يسأل من أُنس منه خوفاً ان يحمل خيفاً كريماً عليه . يؤمن الحائف ويرعب الحائف . . . » (١)

٥ نشر مؤلفات : دائرة المعارف - الالياده - عبرة وذكري

(١٨٩٨-١٩٠٨)

تركت لاجبال النداة صحائفاً من المجد ما أجدتك سالاً ولا حمداً  
فن «عبرة» تلي و«ذكري» لناقل و«الياده» من حسننا انتظمت عقداً (بولس غانم)  
انقضى بضع واربعون سنة من عمر البستاني قضاها في الرحلات والاسفار فجاب بلاد لبنان وسروريا والعراق والعجم والاناضول ونجد والحجاز واليمن وعمان وحضرموت وتفتد شرون الهند وما فيها من القبائل المختلفة . وهبط مصر واقام في الاستانة وبلاد اليونان وزار مرات دول اوروبا واميركا فاكتسب العلوم الكثيرة والمعارف الواسعة . وتمكن من التعشق في العديد من اللغات . فلم يبق عليه الا ان

يفيد قومه بما استفاد ويُتسم ما كان شرع به من المؤلفات القيمة كدائرة المعارف وتاريخ العرب وتعمير الايالة . . . فترك الاستانة واتى لبنان بعد غربة طويلة فتضى مدة في بكشتين ثم باشر فيها بناء دار كبيرة كان عليه ان يدخلها لأول مرة جثة هامة . . .

وكان اثناء راحته يجلس مع ابنا عمه الصغار تحت ارزقين في ساحة الدار فيعلمهم الآداب العربية ونظم الشعر والقراءة النصيحة . وتحت هاتين الارزقين كان يكتب شرح الايالة ومعجمها

ثم قصد الى مصر ، واصر في قلبه مركز خاص ، فاقام بها يشغل تارة بالتجارة فيخسر مادياً وطوراً بالآداب فيعرض ادبياً ونعم التعمير . وفي مصر نشر بالاشتراك مع نسييه نجيب ونسيب البستاني الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف فاستقبلها العالم الادبي بكل حمارة

وكان قد انتهى تعريب وشرح الايالة فنشرها سنة ١٩٠٤ في مطبعة « الهلال » فذلت من إعجاب العلماء والادباء مركزاً عالياً واجمعوا على اكرام صاحبها فاقاموا له حفلة كانت الاولى في بابها وذلك في نزل « شبرد » في القاهرة في ١٤ حزيران من السنة المذكورة . وقد جمع الاديب نجيب مدي صاحب « المعارف » في كتاب خاص جميع ما قيل في تلك الحفلة من منشور ومنظوم

وما حدث الانقلاب العثماني وبدت طلائع الدستور حتى احس المترجم بمقدرته على منعة بلاده دون خوف المراقبات الضيقة . فجمع معلوماته وانكاره وآراءه الصائبة في كتاب أسماه « عبرة وذكري او الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » واصدره من مطبعة « الاخبار » في مصر سنة ١٩٠٨ بسرعة غريبة . وهو لم يستع في تأليفه بسوى حافظته ودماغه الكبير فلم يفتح كتاباً غيره ولم يستمر معجماً . والكتاب آية في الآداب العربية مبنى ومعنى وسيأتي الكلام عليه في بابيه

ثم قدم بيروت ولبنان فزار اقاربه واصدقائه ومعارفه . وكان يخاطب كلاً باهجته فيسر الجميع . وكان يحمل معه مسودات تأليفه فيشتغل بها دائماً ويدون مذكراته . قابلاً بين تمدن الشرق والغرب باذلاً جهده في رفع هذا الحاجز الكثيف الذي يفصلنا عن مستوى الغربيين

## ٦ في مناصب الدولة التركية

عضو مجلس المبعوثان ورئيسه الثاني - عضو مجلس الاعيان - وزير التجارة

والزراعة والمعادن والغابات (١٩٠٨-١٩١٤)

هو نادوا به في المجلسين منيراً علاها فلم تهذ له فوقها نذاً .  
وقولوا لارباب الوزارة بده تخلوا خلا من يمن الحن والعنداه (برلس غانم)  
كان مترجمنا عضواً في جمعية «الاتحاد والترقي» فلم يعلن الدستور سنة ١٩٠٨  
ويصبح للولايات العثمانية الحق بانتخاب مندوبين عنها يمثلونها في مجلس المبعوثان في  
الاستانة حتى ارسلت هذه الجمعية فاستقدمت البستاني الى بيروت ورشحته للنيابة  
لما كانت تعهد به من الكفاءة وسعة الاطلاع والتفاني في حب بلاده  
وصل بيروت فقامت ضجة هائلة حول الترشيح والمرشحين وجرت حوادث  
نذكرها في بابها . . . ثم اسفرت تلك الضجة عن انتخابه مع رضا بك الصلح نائبين عن  
ولاية بيروت وأفضيتها فهنأته الجرائد والمجلات وتناقلت رسمه وما يرزده القوم الى  
الآن بيتنا بيتان من الشعر انشدتها السيدة وردة اليازجي وهما:

اخلق بيروت دار العلم من قديم ان تصطفيك على الايام ميمونا  
فاثأ أ ارتأى إعلان حكمتي ما اختار من شبر الأهلانا

ودخل المجلس فكان خير ممثل للإامة العربية ولما يقدر ان يصل اليه ابناؤها  
من النبوغ . وكان موضع اعجاب جميع الاعضاء . يحسبون له الحساب الاول في المناقشات  
ويجلونه اجلاً عظيماً أدى بهم الى انتخابه رئيساً ثانياً لمجلسهم . وكان ذلك سنة  
١٩١٠ والرئيس الاول احمد رضا بك الشهيد . وكان المترجم في المجلس رئيساً لحس  
لجان اهئها لجنة الخارجية ولجنة السلام العام الدولية . وكان السلطان يرسله الى  
اوروبا في المهمات الرسمية فيرتس الوفود ويخطب في الواصم بلغات اهلها مشيراً  
الاعجاب حيث يمر . . .

ثم نقل الى مجلس الاعيان وعيَّته الدولة سفيراً فوق العادة لدى دول اوروبا  
فسار الى لندن ورومية وبروكسل ليمثل الحكومة العثمانية في المؤتمرات التي عقدت  
سنة ١٩١١ في تلك المدن . وكان قد سار قبل ذلك الى باريس ولندن وبرلين  
رئيساً لوفد النواب العثماني وسار وحده بهمة سياسية الى بطرسبرج

ورجع الى الاستانة وله في المجلسين من الاعمال ما يشرف اسمه ويظهر اخلاصه  
 لأمة ووطنه . وستذكر شيئاً منها في باب رجل السياسة  
 وبقي في الاعيان حتى اصبح البرنس سعيد حليم باشا رجل الدولة فعرض عليه  
 سنة ١٩١٣ وزارة «التجارة والزراعة والماليات والمعادن» . وكان البستاني لا يرغب في  
 الوزارات غير انه قبلها لصداقة بينه وبين البرنس المذكور . فاشتغل فيها اكثر من  
 سنة بجدته ونشاطه المعروفين . فقيامها رأساً على عقب وجعل فيها الرجال الاكفاء وقام  
 باصلاحات عديدة زاهها في مرضها

وما زال في الوزارة حتى تلبّد جرّ السياسة الاوروبية وخاضت الدول غمار  
 الحرب . وكان من رايه ألا تدخلها دولة آل عثمان لانه رأى بها خرابها . فاشتغل كثيراً  
 لئلا يفتح من امتناع الكثيرين من الوزراء . غير ان هياج انور وطلعت وملايين  
 الماركات الالمانية حالت دون اتمام مراده فانتهى حزب الحرب انتصاراً باهراً  
 عند ذلك قدّم البستاني استعفاءه واعتزل السياسة . ولما اشتدّ حزب طلعت وانور  
 وجمال واخذ رجاله بالانسياق في العرب وعرّوا لا يقدر على الوقوف في حوزهم «  
 بنى عليه اباراه ان يقيم في الـ سنة بعد ذلك فتركها حزياً على دولة يجرّها ابناؤها  
 الى الهاوية

٧ جثوم النسر: في سويسرا - المناوذاة بالصالح - المرض - في مصر

(١٩١٤ - ١٩٢٤)

اشتغل البستاني طويلاً ، فحق له ان يستريح وكانت استراحتة شبه قسرية  
 فجم بعيداً عن المترك معتزلاً في سويسرا يرقب فرصة ينفع بها بني قومه  
 وصل تلك البلاد حانقاً اسيفاً فلحق به طلعت باشا وترضاه واعداً اياه بمعاملة  
 الولايات العربية بالرفق واللين . وكان رأى ان ستدور الدائرة على الدولة فطلب اليه  
 ان يسعى بصلح شريف بينها وبين الحلفاء فوعده خيراً . واشتغل بالمفاوضة فنجح بعض  
 النجاح . . . ولكنه لم يصل الى نتيجة حسنة بتكرار مساعي المانيا الشهيرة  
 وكان بين الفرصة والاخرى يتابع كتابة تأليفه مجتهداً ان يجمع فيها كل اختباره  
 الشخصية . . .

وفي اواخر الحرب كانت البلايات قد اشتدت على البلاد الميثانية حزن حزناً كثيراً وأصيب بدهاء أقدمه عن كل عمل فبقي مستلقياً الشهور الطوال في مستشفى «مون ريان» في سويسرا حيث أجريت له عملية لاقى بعدها من الآلام المبرحة ما اذاب عواطفه فنظم قصيدته «الداء والشفاء» التي وصف بها حالته فقال :

«وقالوا سيفٌ هلاجك قلتُ ضمٌ  
فحين أهبُّ نماً قد دعوه رُقَادُ وهو مني قد نبهراً  
لكنف الكبرياء أقادُ حتى مجارياً تساقُ اليَّ جبراً  
كأنَّ لها شمرًا بالتباي فسمعي انين الحزن جهراً  
فن ظهري الي حنٍ وفخذٍ صفائحُ ترمضُ الاعضاء حراً

ثم أتسع بما كان يقاسيه من الآلام اثنا. علاجه الى ان قال :

وكادت تبلغ الروح التراقي وكدت ارى حياة المرء نكراً  
فذا داني وذاك علاجُ داني ولتُ بسالمُ أباً أمراً (١)

وبعد عند الهدنة دعا الى سويسرا اخاه سليان وارجمه الى مصر مريضاً فعالجه فيها اخوه الدكتور عبدالله الى ان تمكن من شفاؤه تماماً بعد سنة ونصف وبعد ان دخل طور النقاة وجاوز الخطر دُعي مراراً الى الاستانة فذهب مرة ولم يُطل المقام . . . واذ نهض الاتراك واستتب لهم الحكم داه مصطفي كمال الى انقرة ليشتغل مركزاً خطيراً في تلك الحكومة التيته فحالت موانع دون قبوله ثم رجع الى مصر وقد انتكست صحته وزاد ألم عينيه فأجريت له عملية في احداهما فلم تنجح وضعف نور الثانية ايضاً. وكان يشتغل اثنا. مرضه في اختراعين نتكلم عنها . . .

وفي صيف السنة الماضية دعاه كبار السوريين واللبنانيين في الولايات المتحدة . فرأى في هذه الدعوة تحقيقاً لثلاث أمنيات : الإجابة الى مطالب بني وطنه ومقابلة اديسن وعرض الاختراعين عليه ثم الاستشفاء من مرض عينيه . فلبى الدعوة وركب البحر الى العالم الجديد فلقني فيه حنفاً

(لها بقية)